# المركز الدولى لمصر
# من خلال رحلة ابن بطوطة*

**أ.د. عبد الهادى التازى****

إبتدأت الدراسة بالحديث عن مصداقية ابن بطوطة فيما كان يرويه، وأن الحقيقة تكشف يوماً عن يوم أن الرحالة المغربى كان قمة فيما يسجله من أحداث وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الدولى لدار الإسلام فى العصر الوسيط.

ومن هنا ينطلق البحث فى الحديث عن التشابه القوى بين التاريخ القديم لمصر وبلاد المغرب .. ويخلص إلى القول بأن ابن بطوطة لم يكن مجرد رحالة يجوب الأرض، ولكنه كان بمثابة سفير متنقل لبلاده يعرف بها ويحمل إليها ما جد من تطورات فى الجهات الأخرى وخاصة فى دولة المماليك التى كانت حليفا قويا للمملكة المغربية.

---

* ملخص المحاضرة التى ألقيت فى الموسم الثقافى للمجمع المصرى فى ٢٠٠٥/٣/٢٢.

** عضو الاكاديمية الملكية المغربية.

ومن هنا تصدى البحث لذكر بعض الجوانب التى استاثر ابن بطوطة بملاحظتها فى مصر دون سائر الرحالة مما اكسب رحلته قيمة تاريخية كبرى على الصعيدين المحلى والدولى.

ومن هنا أخذ يستعرض مظاهر الدولة الكبرى فى مصر .. تلك المظاهر التى كانت تتجلى فى مؤسساتها الحضارية والعمرانية، وفى تنظيماتها السياسية المحكمة، وفى توفيرها الأمن الوطنى والغذائى وحتى الأمن الثقافى على مدى مساحة عريضة واسعة .. هذا علاوة على الجانب السياسى الذى كان يظهر بصفة واضحة فى البعثات الدبلوماسية التى كانت ترسلها مصر إلى الجهات الأخرى أو تتقبلها هى من الجهات الأخرى النائية وحيث ازدهر ما يمكن أن نسميه الأدب الإدارى للدولة.

وتحدثت الدراسة عن وسائل الاتصال السريع التى كانت متوفرة فى مصر ابتداء من حمام الزاجل الذى يحتاج إليه فى بعض الظروف الصعبة، وانتهاء بالبريد الذى يعتمد على السير والذى ضرب هو الآخر المثل احياناً فى السرعة من أجل وصول الخبر فى الوقت المناسب.

وهنا ذكَّرت الدراسة بأهمية سرعة النبأ فى بناء الدول عبر التاريخ، وأن الدولة هى الاتصال، والاتصال هو الدولة.

وفى الحديث عن الوسائل التى كانت تعتمدها مصر فى استتباب الأمن ذكَّرت الدراسة بالجهاز الذى كان يحمل فى التاريخ اسم (الفداوية) والذى كان يتتبع أخبار المشاغبين والمناوئين الذين كانوا يهدفون إلى التشويش على سير الدولة.

وعندما تتتحدث الدراسة عن سعة فضاء الإمبراطورية تذكر شأن اللقب الكبير الذى كان لملك مصر علاوة على ألقابه المعروفة، هذا اللقب هو (خادم الحرمين) مضافاً إليها (حرم القدس الشريف)، الأمر الذى كان يجعل ملك مصر مالكاً لمفتاح الكعبة ..! أى إنه الباب الوحيد لجميع المسلمين للوصول إلى البقاع المقدسة .. وهنا يُفسح المجال لعدد من الأحداث الإسلامية الكبرى التى كانت مصر تقوم يها بأداء دور كبير ليس على صعيد المجموعة الإسلامية فقط ولكن على صعيد المسيحية

أيضاً باعتبار أن مصر كانت الدولة التى تُهيئ للمسيحيين أسباب الوصول إلى مزار السيد المسيح.

وعلى ضوء هذه العلاقات ندرك أسرار صلة مصر بمختلف جهات العالم، وندرك كذلك سر المصاهرات التى كانت تربط ملوك مصر بملوك أسيا الوسطى، حيث نسمع عن مصاهرة ملك العشيرة الذهبية فى خوارزم ملك مصر، كما نسمع عن الأميرة الإغريقية بيلون فى بلاط خوارزم.

وتذكر الدراسة أن ابن بطوطة لم يقتصر حديثه حول مصر، على ما كان يراه هو بمصر، ولكن على أصداء مصر فى الجهات التى كان يزورها، وهكذا قدم ابن بطوطة ملك مصر على أنه أحد الأقطاب السبعة الذين يحكمون عالم الأمس، إلى جانب ملك المغرب والعراق والهند والصين وخوارزم وتركستان.

لقد كانت هذه الدراسة المقدسة فى الندوة المذكورة وثيقة حية للذين يهتمون بالعلاقات الدولية لمصر فى تلك العهود، فقد ذكر المحاضر – وهو كما نعلم شيخُ الدبلوماسيين فى بلاده، ذكر عدداً من السفارات التى لم نكن نعرفها مما شاهدها بلاط مصر .. أمثال السفارة التى وردت على مصر من العراق التى كانت آنئذ تابعة للإيلخَان، وأمثال السفارة التى راحت من مصر إلى العراق بما صحب السفارتين من رجال وعتاد .. هذا إلى السفارات التى كانت ترد على مصر من القارة الهندية لتتطلب التغطية السياسية لدولتها.

وفى هذا الإطار أثار موقف مصر من العلاقات التى كانت تربط بين الممالك الإسلامية فيما بينها .. وكيف أن مصر كانت تتطلع إلى معرفة ما يجرى فى غير بلادها حتى تقوم بتنسيق المواقف فيما بين تلك الدول لمواجهة الأحداث المتجددة.

وعن الأدب الإدارى المشار إليه آنفا. يذَّكر المحاضر مرة أخرى بأمر الرسائل التى كانت مصر تتبادلها مع الأمم الأخرى وخاصة مع المغرب مما توجد نصوصه فى المصادر الأساسية مما أشار إليه ابن بطوطة ذات يوم وهو يتحدث عن مقاومة الدولة المصرية للتحديات التى تهددها من قبل التَّتر على نحو ما كان المغرب يقوم به من كفاح ضد حركات التوسع التى ظهرت ضده من لدن قشتالة ..

وعن الأمن الثقافى بالأمس البعيد أشار المحاضر لما ذكره ابن بطوطة من قيام بعض المشايخ بنشر بعض الأفكار التى لم تكن مقبولة من لدن الجمهور الآخر. الأمر الذى جعل الناصر يتخذ موقفاً حاسماً من شأنه أن يحمى الناس من الفتنة والتسيب، ولم يغفل المحاضر الحديث عن رواق المغاربة بالأزهر الشريف الذى اعتبره مركزاً ثقافياً للمغرب فى مصر.

وبما يتعلق بالجانب المعمارى، ذكَّر المحاضر أيضاً بالتنافس الذى كان بين السلطان أبى عنان والملك الناصر فيما يتصل بإنشاء الزوايا والخزائن العلمية والمدارس الطلابية فى كل من مصر والمغرب.

وقد أثار المحاضر سؤالاً يتعلق بموضوع عدم اتصال الرحالة ابن بطوطة بالجهات السياسية المسؤولة فى مصر على نحو ما كان منه وهو يتصل بالملوك والأمراء الآخرين فى ماردِين أو ظفار أو سومطرة .. وعزا ذلك إلى "البروتوكولات" الشديدة التى كانت مفروضة آنذاك على الزائرين للبلاط، إلى جانب ما كانت تتسم به رحلة ابن بطوطة من صوفية فى "الزى والسَّجِية" كما كانوا يقولون.

وقد أشار المحاضر فى حديثه إلى أن مصر كانت ترعى الديانات الثلاث التى يعتنقها المواطنون على أرضها وكانت تجد فى تلك الديانات وسيلة لجمع الكلمة بين أصحابها وإقناعهم بان عليهم أن يشعروا بأن الوطن وطنهم .. وأن وسائل الوصول إلى الرب تبقى محفوظة بين أيديهم. وقد دعا المحاضر فى الأخير إلى ضرورة الاستفادة من رحلة ابن بطوطة لكتاب "تاريخ العرب، كما أبرز حاجة الرحلة إلى "فيلم" على مستوى رفيع يليق بعظمة الرحلة وصاحب الرحلة الذى أصبح تراثاً عالمياً محل تقديرٍ وإكبارٍ من الجميع.

* * *